بجاية من الاحتلال الاسباني إلى التحرير العثماني 1510- 1554.

د. بن عتو بلبروات*

تحتاج مدينة بجاية وضواحيها إلى دراسات تاريخية أكاديمية خلال الفترة الحديثة وبأقلام جزائرية تتناول النفوذ الحفصي التونسي في اقليم بجاية، وملابسات الهجرة الجنوبية والبندقية إلى بجاية قبل الاحتلال الاسباني سنة 1510 وعلاقة البجاويين بالاسبان من جهة وبالأتراك العثمانيين من جهة أخرى، كما يتوجب نقد ما كتب حول بجاية سواء كانت كتابات تركية أو كتابات غربية وفي مقدمتها الاسبانية، وهذا ما لاحظناه عند تناولنا للاحتلال الاسباني لبجاية وضواحيها وتدخل الإخوة بربروس ومن جاء بعدهم من الأتراك العثمانيين لتحريرها، فالمعلومات المتوفرة في المصادر لا تحقق ذلك السياق التاريخي الدقيق للأحداث، وتتضارب في التفاصيل بحيث يجد القارئ نفسه أمام تساؤلات واستفهامات.

ولعل أبرز التساؤلات التي نطرحها بهذا الصدد، تدور حول الأسباب الحقيقية التي كانت وراء حرص الاسبان على احتلال بجاية سنة 1510 مباشرة بعد احتلالهم لوهران سنة 1509، وما موقف سكان بجاية من الاحتلال؟ ولماذا فشل الاخوة بربروس في تحرير بجاية مرتين متتاليتين ونجح صالح باشا في مرته الأولى؟

1-وصف طوبوغرافي لمدينة بجاية وضواحيها:

مدينة بجاية: تقع مدينة بجاية بالشرق الجزائري على خط ساحل البحر المتوسط، يعود تاريخها إلى العصر القديم، أسسها الفنيقيون وسموها صلدة، ثم احتلها الرومان ودعوها صلداي التي تعني الحجر الصلد أو الصلب. ونظرا لموقعها الهام اتخذها الوندال عاصمة لهم قبل وصولهم إلى قرطاجنة، ثم فقدت أهميتها لتزدهر من جديد عندما اتخذها الحماديون الصنهاجيون مقرا لحكمهم سنة 1076م وسماها الناصر الحمادي بالناصرية، ثم سميت بجاية باسم قبيلة بربرية تقطن

* - أستاذ محاضر أ في التاريخ الحديث- قسم التاريخ- جامعة الجيلالي ليابس (سيدي بلعباس).

حولها. وقد تداولت عليها الدولة الموحدية المغربية والدولة الحفصية التونسية، وهاجر إليها تجار البندقية وجنوة واستقروا بها حتى بداية الاحتلال الاسباني سنة 1510 فقد كان لهم فيها خانهم الخاص وحماماتهم وكنيستهم ومقبرتهم.[1]

وكتب الحسن الوزان أنها مبنية في منحدر جبل شاهق على ساحل البحر المتوسط، تحيط بها أسوار عالية متينة، وتوجد قرب الجبل قلعة كبيرة متينة الجدران مزخرفة بالفسيفساء والجص المجزع والخشب المنقوش، وعندما احتل الاسبان المدينة سنة 1510 شيدوا بسرعة قلعة قرب البحر في موضع ملائم للشاطئ، كما رمموا وحصنوا قلعة قديمة مجاورة للبحر بجانب دار الصناعة.[2]

عندئذ نلاحظ أن مدينة بجاية في ظل الاحتلال الاسباني كانت محصنة بأسوار عالية وثلاث قلاع موزعة بطريقة ذكية؛ الأولى هي قلعة الجبل (جبل قورايا) ومن خلالها يتم مراقبة البر والبحر بحكم إطلاله على البحر والمدينة معا. والثانية والثالثة تشرفان على الشاطئ، وهما القلعة القديمة والقلعة الجديدة التي نعتقد أنها هي التي تحتضن الحصن الامبراطوري، وبعد القلاع والجبل تأتي المدينة وبهذا التحصين، عجز الاخوة بربروس عن تحريرها سنتي 1512 و1515م .

وفي مدينة بجاية يقول مارمول Marmol: "بجاية مدينة عظيمة كانت في عهد ازدهارها تحتوي على أكثر من عشرين ألفا من الدور العامرة. بناها الرومان على سفح جبل كبير ينظر إلى البحر، على بعد ثلاثين ميلا شرقي الجزائر وعلى بعد اثنى عشر فرسخا من جيجل في الجهة الأخرى...كانت محصنة بأسوار عالية...وهي مبنية على تلال تمتد فوقها إلى أن تبلغ أعلى الجبل حيث يوجد حصن حصين وقصور على النمط الموريسكي[3] ليس لها من المنعة قدر ما لها من الرونق والجمال. ويوجد في الجهة الموالية للبحر حصن آخر له ثلاثة بروج. ودور المدينة جيدة البناء. وبها عدد من المساجد وعدد من المدارس العتيقة تدرس بها العلوم"[4].

ب-ضواحي مدينة بجاية: تحدث مارمول كربخال عن ضواحي بجاية، مبرزا تضاريسها وطبائع قبائلها وثرواتهم قائلا:"ليس في هذه الجهات سوى جبال وعرة تنبع منها الجداول والأنهار، وفيها عديد من مساكن زواوة والبربر الأشداء الممتلئين عزة ونبلا، وهم أغنياء

بمختلف أنواع الماشية، وفيهم عدد من المحاربين حملة البنادق، ومن الفرسان. وجبالهم موحشة صعبة المساكن. لذلك فمعظم سكانها قبائل طليقة لا تقيم وزنا لسطوة الملوك. وتسكن السهول جماعات من العرب ومن زواوة، عيشهم على نمط واحد هو نمط النعجة، وإذا رحلوا سكنوا في الخيام. وهم متصفون بالشجاعة، بأيديهم كثير من أسلحة النار، وإن كان جلهم من صناع الأقمشة والفرشات والزرابي على الطراز المغربي الأندلسي. يعيشون على دقيق الشعير واللحم والتين والجوز، وهم يجففون ما يحتاجونه من هذه المأكولات لسنة كاملة"[5].

ثم استطرد قائلا: "وفي أرضهم عدد من مكامن الحديد الذي يصنعون منه في بعض محلاتهم قطعا صغيرة يستعملونها نقودا يتعاملون بها، وإن كانوا يستعملون أيضا نقودا من الذهب والفضة. وفي أرضهم كميات من الكتان والقنب يصنعون منها ثيابهم. نساؤهم حسناوات يغار عليهن الرجال غيرة شديدة. أما الرجال فهم أقوياء الأجسام نشيطون ولكنهم غير متعودين على النظام، لا يكفون عن التقاتل فيما بينهم، وهم يغلون كميات وافرة من القمح التي تنبتها سهولهم."[6] لكن الحسن الوزان، يقول أن الأراضي الزراعية لإقليم بجاية غير خصبة لا تستطيع أن تنتج حبوبا.[7] وإذا عدنا لمارمول في هذا السياق نجده يشي إلى أن بجاية تحيط بها البساتين ولاسيما من جهة الشرق، وتوجد على مسافة منها غابات متكاثفة الأشجار بها كثير من الأسود والقرود. ولا تأتي أرض هذه الجهات بقمح كثير، ومع ذلك فالسكان في سعة من عيشهم بفضل ما لهم من التجارة مع أوروبا."[8] ويشاطره الحسن الوزان حيث كتب أن سكان مدينة بجاية وضواحيها مغمورون بالثمار إذ يحيط بالمدينة عدد لا يحصى من الحدائق العامرة بالأشجار[9].

2-دوافع الاحتلال الاسباني لبجاية: تأتي دوافع الاحتلال الاسباني لبجاية وضواحيها في سياق دوافع الاحتلال للمدن الساحلية بشمال افريقيا، ونبين ذلك كالآتي:

أ-الدوافع الدينية: هي وليدة الصراع مع المسلمين خلال حرب الاسترداد وقد اشتدت تجاوبا مع دعوات البابا إلى الحرب الصليبية في النصف الثاني من القرن 15م، إثر سقوط

القسطنطينية سنة 1453م، وقد لعب المتعصبون من رجال الدين الاسبان، وعلى رأسهم الكاردينال خمينيس Ximinès دورا بارزا في الإعداد للحملات الاسبانية وتوجيهها. وفعلا فقد وجه خمينيس، القائد بيدرو نافارو Pedro Navarro لاحتلال وهران سنة 1509 وبجاية سنة 1510.[10]

وما يثبت النزعة الدينية للاحتلال الاسباني بمنطقة بجاية ما كتبه الرحالة الألماني هاينريش فون مالتسان في النصف الثاني من القرن 19م قائلا: "أرسل الكاردينال خمينيس سنة 1510 حملة بقيادة بيدرو نافارو إلى بجاية، فاستولى عليها بعد مقاومة قصيرة قام بها الأمير التونسي عبد الرحمن. فكانت فرحة الكاثوليكيين كبيرة بهذا النصر، إلا أن أهالي جنوة والبندقية لم يفرحوا باحتلال بجاية ذلك أن هذا الاحتلال قضي على الحركة التجارية دفعة واحدة، فقد طرد الاسبان المسلمين كلهم تقريبا، وعينوا أسقفا في المدينة التي لم يعد يسكنها غير الجنود تقريبا، وأرسلوا عددا من الرهبان ومفتشا لتنصير اليهود ومطاردة الملحدين."[11] كما ورد عند مارمول ما يفسر النزعة الدينية للاحتلال الاسباني فقد ذكر أنه لما عاد بيدرو نافارو من ريف بجاية غانما سالما واقترب من المدينة وجد في استقباله القس الجديد مع جميع أعضاء هيئته ينشدون الصلاة.[12]

ب-الدوافع السياسية والاستراتيجية:

-ملء الفراغ السياسي في اقليم بجاية: استغلت اسبانيا ضعف الدول الثلاث الحاكمة في المغرب الإسلامي، وهم الدولة الحفصية، الدولة الزيانية، والدولة المرينية، ولما كانت بجاية تحت حكم الحفصيين قبل الاحتلال الاسباني لها، فقد تأثرت بالتوتر السياسي الذي عرفته المنطقة برمتها ورغم أن مارمول لم يفصح عن توتر سياسي بين الأمراء ببجاية إلا أنه قد يظهر للمتمعن في تطور الأحداث عندما نلاحظ أن أحد أقارب الأمير الحفصي حاكم بجاية، تقدم بين حضرة بيدرو نافارو وعرض عليه مساعدته ليكون دليلا للجيش الاسباني في ملاحقة الأمير الفار وأنصاره. ولعل النصوص التاريخية المصدرية الآتية تؤكد اعتقادنا، فهذا مارمول كربخال يكتب مقطعا مفاده أن إقليم بجاية كان تابعا مدة من الزمن لمملكة تونس عندما استطاع أحد أمرائها فرض الاتاوة على تلمسان، وكان عند رجوعه قد ترك أحد أبنائه المسمى أبو فارس أميرا على بجاية، ليخلفه بعد وفاته ابنه عبد العزيز، بدعم من أخيه عثمان حاكم تونس، وكان عبد العزيز أميرا لينا يلقي المودة إلى جميع الناس، ولذلك عاش أهلها في السلم المديد وملكتها بعده سلالته

إلى أن استولى عليها الكونت بيدرو نافارو ونعتقد أن هذه السلالة التي حكمت بجاية هي التي شهدت صراعا على كرسي الحكم.[13]

لكن نلاحظ أن مارمول يستدرك الوضع ويفصح عن هذا التوتر السياسي على كرسي الحكم عندما تطرق إلى نجاح بيدرو نافارو في احتلال مدينة بجاية وعزمه على ملاحقة الأمير الفار بالضواحي حيث قال: "وقد لقي الكونت بيدرو نافارو تعاونا من طرف أحد أقارب الأمير المسلم الفار من المدينة حيث دله على مكان نسيبه الأمير ومن فر معه من السكان ذاكرا أنهم يوجدون في مخابئ بين الجبال، ثم عرض على الكونت بيدرو معونته ليكون دليلا للجيش الاسباني إذا قرر مباغتتهم".[14]

أما العلامة المعسكري أبي راس الناصري فقد أورد في عجائب الأسفار أن الاسبان دخلوا بجاية وقت تلاشي أمر آل أبي حفص وافتراق كلمتهم وتعداد أمرائهم. ولم تؤخذ منهم إلا في سنة 961هجرية (ما يوافق سنة 1554م) ومنذ الاحتلال سنة 1510 إلى التحرير النهائي سنة 1554 كانت بجاية عامرة بالكفرة[15].

-التصدي لقراصنة بجاية في الحوض الغربي للبحر المتوسط: نشطت القرصنة البحرية الإسلامية بشمال افريقيا والتي كان يساهم في تمويلها مسلمي الأندلس بدافع الربح من جهة وبدافع الانتقام ممن طردوهم من موطنهم من جهة أخرى،[16] وكانت بجاية من ضمن المدن الساحلية الشمال افريقية التي كانت تبعث بقراصنتها إلى البحر لتنفيذ هجماتها العسكرية الخاطفة على السواحل الاسبانية؛ وفي هذا السياق يذكر مارمول أن: "سكان بجاية قد جهزوا سفنا حربية صغيرة للقيام بالقرصنة في سواحل البلاد المسيحية، فأدى ذلك إلى قيام الملك فرديناند Ferdinand بالرد على ما يقومون به من الإفساد، فأرسل الدون بيدرو نافارو في سنة 1510م باتجاه بجاية ومعه أربع عشرة سفينة كبيرة محملة بالجنود ولم يشعر به أحد ولا استعد له في مدينة بجاية".[17] وجاء كلام هاينريش مطابقا لرواية مارمول حيث قال: "وفي القرن الخامس عشر بدأت بجاية تفقد سمعتها عند التجار المسالمين، إذ بدأ سكانها يستسلمون

للقرصنة، عدوة كل حركة تجارية، ويبدو أن الاسبان كانوا أول من عانى من قرصنة البجاويين"[18].

-الدوافع الاقتصادية: اشتهرت الحركات الاستعمارية في العصر الحديث بنزعتها الاقتصادية وأطماعها في استغلال خيرات الشعوب أو البلدان المغلوب على أمرها، وقد نجد أن الاحتلال الاسباني لسواحل شمال افريقيا لا يشذ عن هذه القاعدة، فكانت تسعى اسبانيا إلى تأمين نشاطها، خاصة التجاري، في البحر المتوسط، من خلال إحكام سيطرتها على قلاع المسلمين على طول سواحل شمال افريقيا، من بينها قلعة بجاية الحفصية وقتذاك، ناهيك عن ثروات اقليم بجاية التي تعرض إليها كل من الحسن الوزان ومارمول كربخال كما سلف ذكره، فهي تزخر على سبيل التذكير ببساتينها وما تدره من ثمار مختلفة، وبحديدها الخام، ومواشيها...

وأفادتنا الكتابات التاريخية أن الاسبان لما احتلوا بجاية سنة 1510 نهبوها ونقلوا جميع ما فيها من تحف ونفائس إلى اسبانيا في ثلاثين مركبا غرق أكثرها في الطريق بسبب العواصف البحرية الهوجاء.[19] كما غنموا من ريف بجاية الجمال والبقر والخيل والبغال والغنم والماعز وقدرا كبيرا من الذهب والفضة ولباس الحرير ومجموع جهاز الملك وأحجاره الكريمة.[20]

3-الحملة الاسبانية وسقوط مدينة بجاية (05 جانفي 1510م): سخر الكاردينال خمينيس كل قواه لتوجيه حملة عسكرية بحرية تتكون على الأرجح من أربعة عشر سفينة كبيرة بقيادة بيدرو نافارو ضد بجاية كأحد أكبر معاقل القرصنة الإسلامية في الشمال الافريقي، ولعل ما حفزه على ذلك هو نجاحه في احتلال المرسى الكبير سنة 1505م وقلعة وهران سنة 1509م والتأييد المطلق الذي حظيه من لدن الملك فرديناند.

لما بلغت القوات الاسبانية مياه مدينة بجاية في اليوم الخامس من شهر يناير 1510م، تفاجأ سكان بجاية حسب مارمول لكنهم أبدوا مقاومة حيث كان الرمي المدفعي للمقاومين البجاويين من القلعة القديمة المحاذية للبحر وقلعة جبل قورايا المطل على المدينة، إلا أن نيران المدفعية الاسبانية من على متن السفن كانت أقوى وأشد، وفتحت الطريق للجنود الاسبان للتقدم نحو الساحل وإلى الجبل. وأمام هذا المعطى الذي لم يكن في صالح البجاويين، اختار أميرها وأعيانها

دعوة السكان إلى إخلاء المدينة والتراجع نحو الجبال والغابات المجاورة للمدينة ولم يبق سوى حاملي السلاح.

على أية حال انتهت المعركة الأخيرة بانتصار الاسبان على البجاويين الذين راح ضحيتهم أكثر من أربعة آلاف قتيل، وعاث الاسبان فسادا في المدينة إذ هدموا منارة قصر اللؤلؤ البالغ طوله سبعين ذراعا والذي يعتبر من أعظم آيات فن المعمار الجزائري الجميل، وحطموا قصر الكوكب والمسجد الجامع الأعظم.[21]

بمجرد سيطرة الاسبان على مدينة بجاية بعث قائدهم بيدرو نافارو برسالة إلى الأمير وحاشيته يدعوهم فيها إلى الاستسلام لكنهم رفضوا وصمموا على المقاومة، وحينها قام الاسبان ببناء حصن على الشاطئ (القلعة الجديدة) وجعل حامية بالحصن القديم (بعد ترميمه) الذي كان بشاطئ البحر. وقد جاء بيدرو بخمسة عشر ألف مقاتل استعملهم في تحصين المدينة، وكان يفكر في استعمالهم في فتوح جديدة."[22]

ويعتبر تحصين بجاية من قبل الاحتلال الاسباني عملية تكتيكية، الغرض منها جعل المدينة بقلاعها الثلاث قاعدة خلفية أو نقطة ارتكاز للتوسع في دواخل بجاية، وتصفية المقاومة القادمة من هناك، ولهذا نجد مارمول قد كتب المقطع الآتي: "... فقام القائد الاسباني باستطلاع المنطقة الجبلية التي فر إليها الأمير وأنصاره، ثم خرج إليهم ليلا بصحبة فرقة 115 جنديا والأمير المستجير ومن كان معه من الأتباع، وفي بداية الصباح وصل العساكر الاسبان إلى المروج، بعد اجتيازهم وادين عميقين بسبب ذوبان الثلوج في ذلك الوقت، لكن انكشف أمرهم ففر البجاويون وطاردهم الاسبان داخل الجبال وتمكنوا من القبض على عدد منهم ومن قتل آخرين، وغنموا الجمال والبقر والخيل والبغال والغنم والماعز وقدرا كبيرا من الذهب والفضة ولباس الحرير ومجموع جهاز الملك وأحجاره الكريمة، وأشعلوا النار في المحلة التي كانت بالسهل، وعاد الكونت بيدرو سالما غانما رغم مناوشته من قبل البجاويين من جميع الجهات."[23]

3-محاولات الإخوة بربروس تحرير بجاية من الاسبان:

أ-المحاولة الأولى: وتتمثل في تلك المعركة الأولى التي جرت وقائعها سنة 918هـ/أوت 1512م بين مقاتلي الإخوة بربروس المنقذين والجيش الاسباني المحتل، وقد اختلفت الروايات التاريخية في سبب قدوم الإخوة بربروس إلى بجاية، فخير الدين يذكر أن جهادهم البحري في البحر المتوسط وإلحاق الضرر بمصالح الأوربيين جعل الدول الأوربية تتفق على مطاردتهم حيث أعدوا عشر قطع بحرية من نوع قادرغة kadirga [24] إعدادا جيدا للقبض عليهم، فتوجه الإخوة بربروس إلى جنوة لكن بدلوا وجهتهم بسبب الرياح ليقرروا الإرساء أمام قلعة بجاية، فلاحقتهم السفن الاسبانية إلى هناك، ليقرر عروج الانسحاب واستدراج سفن الأعداء إلى المياه والاشتباك معها، وكانت النتيجة أن غنم بربروس ثلاث سفن اسبانية وكذا سفينة القيادة، بينما لاذت السفن الأخرى بالفرار محتمية بقلعة بجاية. وهنا لاحظ الإخوة بربروس أنه من الضروري الاستيلاء على قلعة بجاية.[25]

أما المؤرخ التركي إلتر **Ilter** فيرى أن سبب التفات الإخوة بربروس إلى بجاية هو الطلب الذي تقدم به عبد الرحمن (الحفصي) لمساعدته من أجل استعادة حقه من حكومة بجاية، فلبى عروج على الفور طلبه وتوجه على رأس أربع سفن إلى بجاية ووجد عبد الرحمن بانتظاره ومعه ثلاثة آلاف شخص، وأثناء تحرك عروج إلى بجاية، شوهد من قبل الأسطول الاسباني، فبدأ بتعقبه وملاحقته. فتصدى عروج لسفن الأسطول الاسباني، بكل شجاعة، وتمكن من إغراق واحدة بالمدافع، وأسر اثنتين، وفرت السفن الباقية.[26]

وبعد استيلائه على السفن الاسبانية، وضعها جانبا ونزل عروج مع خمسين مقاتلا وبعض المدافع، وباشر فورا بقصف الاستحكامات الاسبانية حتى فتح ثقبا في جدارها في اليوم الثامن من القصف ومن ثم هاجم القلعة[27] رغم معارضة خير الدين لذلك لأن قلعة بجاية كانت تعج بالاسبان وبحوزتهم مدفعية تنتظر الهجوم التركي وفعلا أمطرت قوات الإخوة بربروس بوابل من القذائف المدفعية لتصيب إحداهن الذراع الأيسر لعروج فجرحته جرحا بليغا.[28] فحاصرها بألف من الفرسان الأتراك وعشرين ألفا من أهل الجبال حسب مارمول كربخال.[29] أوقف رفاق عروج المعركة التي انتهت بمقتل ستين مقاتلا من العثمانيين وعدد كبير من الجرحى، أما

مارمول فيزيد عنه إلى مائة من الأتراك وأكثر من ألف من سكان المنطقة، وفي الصف الاسباني تم قتل ثلاثمائة وأسر مائة وخمسين.

انسحبت قوات بربروس إلى تونس- حسب خير الدين-[30] وقد غنمت عشرة سفن اسبانية، وتم معالجة جراح عروج وقرر الجراحون قطع ذراعه، وبعد معافاته توجه الإخوة بربروس إلى سواحل الأندلس لإنقاذ المسلمين المضطهدين من بطش الاسبان ونقلهم إلى المغرب الأوسط وتونس.[31]

ب-المحاولة الثانية: تصادف المعركة المتجددة بين الاخوة بربروس الذين أصبحوا يحظون بدعم الدولة العثمانية، والتي جرت وقائعها سنة 921هـ/1515م، وتطلعنا الكتابات التاريخية أنه لما هم الإخوة بربروس بالتوجه إلى سبتة للمرور إلى الأندلس بغاية إنقاذ المسلمين، ورد عليهم وفد من مدينة بجاية حاملا رسالة جاء فيها: "إن كان ثمة مغيث فليكن منكم أيها المجاهدون الأبطال. لقد صرنا لا نستطيع أداء الصلاة أو تعليم أطفالنا القرآن الكريم لما نلقاه من ظلم الاسبان . فها نحن نضع أمرنا بين أيديكم. جعلكم الله سببا لخلاصنا بتسليمه إيانا إليكم، فتفضلوا بتشريف بلدنا وعجلوا بتخليصنا من هؤلاء الكفار"[32].

وفي هذه الأثناء وصل كتاب من السلطان العثماني إلى السلطان الحفصي بتونس فيه: "إلى أمير تونس إذا وصلك كتابي هذا عليك أن تعمل به، واحذر أن تخالفه وإياك أن تقصر في تقديم أي عون لخادمينا: عروج وخير الدين.". ومنذ هذه اللحظة تحول الإخوة بربروس من قراصنة مجردين من أي حماية، إلى خدام السلطان العثماني سليم الأول مما يعني تحول نظرة الملوك المسلمين وغير المسلمين تجاههم.[33]

تدارس عروج مع أخيه خير الدين الوضع، فصمما أولا على احتلال المدن الساحلية، بدءا بجيجل القريبة من بجاية، وحالما بلغها، باشر بقصفها وبعد مقاومة بسيطة استسلمت المدينة. وألقى عروج القبض على الجنود الجنويين والبالغ عددهم مائة جندي.[34]

ومن جيجل توجه الإخوة بربروس إلى ميناء بجاية في ألفين وثلاثة وثلاثين بحارا وعشرة سفن قادرغة، ومائة وخمسين مدفعا وآلاف الأسرى الذين يقومون بالجدف[35] ويساعدهم

عشرون ألف متطوع من الأهالي الذين كانوا لا يعرفون الفنون القتالية جيدا. وبدأ حصار بجاية من البر والبحر دام أربعة وعشرين يوما. وخلاله أنزل عروج بعض سفنه بعساكرها بوادي الصومام الذي يصب في البحر المتوسط، كما قام بنقل مدفعيته إلى البر. وترك الباقي في البحر، وبعد اشتباك في معركة دامت ثلاث ساعات ونصف، قتل فيها أكثر من صفوف الاسبان، تمكنت قوات عروج من دخول ميناء بجاية، لتتوجه بعد ذلك إلى تطويق قائد القلعة دي فانتيرا De Vantira مع شرذمة من الاسبان الموجودين بالقلعة الداخلية، وبعد قصف استمر أربعة أيام، سقط الحصن الخارجي وتهدمت الاستحكامات الرئيسية للقلعة، فاندفع المتطوعون البجاويون لمهاجمة القلعة، واستولوا على القلعة الداخلية، وأسروا خمسمائة شخص عدا القتلى والجرحى.[36]

خلال هذه المدة، فرغ البارود من قوات عروج، ولم تصله كميات البارود التي طلبها من سلطان تونس الحفصية، الذي بدأ يظهر عداوته للأتراك والسعي لنصرة الاسبان وذلك لما كان بين جده عبد الرحمن وأحمد بن القاضي المعروف ببوقطوش، الموالي للأتراك، من العداوة.[37] ووسط هذه الضائقة، وصلت خمس سفن حربية من اسبانيا بقيادة دي مارتين De Martine لنجدة القوات الاسبانية ببجاية.

أما البربر الذين تطوعوا لمساعدة عروج، انسحبوا بعد حصولهم على الغنائم، وفي المقابل أصبح عروج مجبرا على فك الحصار بسبب اقتراب موسم العواصف البحرية، والذي يبدأ مع نهاية شهر جويلية كما اضطر عروج إلى إحراق السفن لكي لا تبقى غنيمة للأعداء فالسفن التي تركها في وادي الصومام، جفت مياهها وغدت على اليابسة وهذا ما دفعه لإحراقها والتخلص منها، وذهب سيرا على الأقدام حتى وصل أسوار جيجل.[38] أما خير الدين، فقاد القوات التركية الملازمة للبحر وسحبها نحو جيجل التزاما بالاتفاق مع أخيه عروج وأخذ يترصد القوات الاسبانية القادمة من مينورقة، إحدى جزر البليار، لنجدة بجاية. ولما ظهرت في الأفق عشرة سفن كبيرة من نوع قادرغة، مشحونة بالأسلحة والمعدات العسكرية، تم تنفيذ الهجوم عليها تحت صيحات التهليل والتكبير، ووقع الاشتباك في معركة كبيرة انتهت بالاستيلاء على

السفن العشرة وقتل الجنود الاسبان، ولم يبق سوى ثمانية وسبعين جنديا أخذوا أسرى وتم تقييدهم للعمل في الجدف.[39]

وما دامت الحرب خدعة، فقد نشر خير الدين بربروس، الرايات الاسبانية على السفن العشرة ودس خمسمائة بحار عثماني في السفن واتجهت إلى بجاية، وكان الاسبان المتحصنون بقلعة بجاية ينتظرون القطع البحرية العشرة القادمة من مينورقة لإمدادهم، ولما رأوها بدأوا يلوحون بقبعاتهم فرحا، ففتح الاسبان أبواب القلعة وتدفقوا على قصورهم الساحلية لاستقبال السفن التي جاءت لنجدتهم. وفجأة خرج البحارة العثمانيون إلى الساحل مهللين فتراجع الاسبان واضطربت صفوفهم فتمكن خير الدين من فتح القلعة وراح الاسبان يصرخون طالبين الأمان.[40]

بعد فتح القلعة جاء جميع الشيوخ وقواد المناطق المجاورة لبجاية مبايعين خير الدين على فوزه على الاسبان، وانتصب عروج وخير الدين ملكين على هذه البلاد الجزائرية، ثم رجع خير الدين إلى جيجل لمقابلة أخيه عروج الذي هنأ خير الدين على فتحه لقلعة بجاية.

استولى خير الدين بربروس في هذه الحملة على ثمانمائة برميل من البارود وعدد لا يحصى من الغنائم. أما الاسبان فقد أبدوا سخطا كبيرا على ضياع قلعة بجاية منهم، وأصدر بالمناسبة ملك اسبانيا وألمانيا شارل الخامس CharlesV أوامره بوجوب تخليص بجاية، وإنقاذ الأسرى من الأتراك العثمانيين.[41]

بعد هذا الفوز للإخوة بربروس في بجاية وما سبقه من انتصارات في عرض البحر المتوسط، تعالت أصداء هذه الجماعة المجاهدة، فبدأت تصلهم بجيجل وفود عديدة من المدن الجزائرية، كان أهمها وفد مدينة الجزائر التي كانت تمثل مركز البلاد.[42] وهنا يلاحظ الدكتور محمد دراج من جامعة الجزائر أن خير الدين لم يفتح بجاية ولم يطرد الاسبان منها بالكامل، إذ لم يتحقق ذلك إلا في عصر البايلرباي صالح رايس (رئيس) سنة 1555، والذي يفهم من مذكرات خير الدين بربروس أنه فتح قلعة واحدة فقط بالمدينة . وحسب مارمول بقيت بجاية

تحت حكم ملوك قشتالة مدة 45 سنة وكانت لهم بها حامية من 500 جندي في ثلاث قلاع ينطلقون منها للقيام بالغارات في الجهات المجاورة، ضد قبائل مدربة على القتال.[43]

4-صالح باشا والتحرير النهائي لمدينة بجاية سنة 1555م: قاد عملية تحرير بجاية بشكل نهائي البايلرباي صالح رايس باشا (1552-1556)، حيث جهز قوة صغيرة من الانكشاريين مع ثلاثة آلاف مقاتل من القبائل لمحاصرة بجاية وتحريرها من الاسبان، وكان الحصار من جهة البر بـــ40 ألفا من المقاتلين، كان بينهم 10 آلاف من الفرسان المسلحين بالبنادق، ومن جهة البحر بـــ 22 من السفن الحربية الصغيرة والقادرغات الحاملة للمدفعية، وتمكنت السفن من دخول واد الصومام لأنه كان فائضا. وفي 16 جويلية 1554 تمركزت قوات صالح رايس أمام بجاية ونصب الجزائريون بطاريات مدفعية ذات قطر كبير أمام القلعة وباشروا قصفها بشدة، وبعد قصف مركز تمكنوا من هدم قصر الامبراطور في حصن موسى، أما قصر البحر في حصن عبد القادر فلم يتمكنوا من ضربه.

وبعد أن اقتحم الحصن الإمبراطوري الذي غادره الاسبانيون لتعذر الدفاع عنه، حاصر حصن البحر ولم يكن بداخله سوى 40 جنديا، وبعد أن رماه بالمدفعية مدة خمسة أيام تمكن من أخذه عنوة. وبعد ذلك حاصر الحصن الأعظم الذي لجأ إليه قائد قوات حرس بجاية، الدون ألونزو دي بيرالتا Don Alonzo de Biralta مع من بقي من الجنود، وبعد ضربه مدة 22 يوما أدرك الحاكم الاسباني عدم جدوى المقاومة ولكنه لم يعلن استسلامه مما شدد صالح رايس قصفه على المواقع الاسبانية والمقاومة المحلية على حد سواء، مما دفع الاسبانيين والأهالي المسيحيين على الاستسلام. أما دون ألونزو المذكور فقد تمكن من النجاة مع مائة وعشرين شخصا بعدما رموا أنفسهم على سطح سفينة من نوع كرافل الشراعية السريعة، نقلتهم إلى أليكانت إحدى المدن الاسبانية.[44]

أما مارمول كربخال كمصدر اسباني فيذكر خلاف ذلك حيث يروي أن دون ألفونس دي بيرالتي قد لاذ بالحصن الأعظم مع نفر من الجنود، وبعد ضربه مدة اثنين وعشرين يوما تعذر الصمود على من بداخله فصالح عليه الحاكم الاسباني أملا في إنقاذ حياة النساء والأطفال

واستسلم بعد أن أخذ العهد بإخلاء سبيله هو وجميع من كانوا معه بداخل الحصن، وبتمكينه من سفن يجوز بها إلى اسبانيا، ولكن التركي أبي صالح باشا لم يوف بوعده، بل إنه استرق واستعبد جميع من كانوا بالحصن ما عدا الدون ألفونسو وعشرين من الأشخاص وقع عليهم اختياره. ولما عاد الدون ألفونسو إلى اسبانيا سجنه الامبراطور هو والذين نصحوه بالاستسلام، وقد صدر عليه الحكم وقطع رأسه أمام الملأ في ساحة بلد الوليد،[45] بعد اتهامه بالخيانة وعدم قدرته على إدخال نصوص في وثيقة الاستسلام يستفيد منها رجال الحامية، ويقال أن هذه الحادثة المهينة بالنسبة لاسبانيا هي التي حملت شارل الخامس على التنازل عن العرش.[46]

وفي 28 جويلية دخل صالح باشا بجاية وألقى القبض على ستمائة شخص كما غنم الأسلحة والذخائر الاسبانية، وتبريرا لما حدث أعدم الاسبان دون ألونزو ككبش فداء، مع أنه أبدى مقاومة شديدة، وقد نفذ فيه حكم الإعدام بساحة فالا دو ليدين **vola do lidin** أو ساحة بلد الوليد.

لدى خروج الاسبان من بجاية سيطر عليهم الأسى والحزن، وشاركهم الامبراطور شارل الخامس وجميع قادته هذا المصاب، وليؤكد الامبرطور حزنه قدم دون ألونزو قربانا بريئا مع العلم أنه قدم أثناء محاكمته الوثائق والأدلة التي تؤكد اضطراره لتسليم القلعة، وبخروج الاسبان من بجاية لم يبق بأيديهم سوى وهران والمرسى الكبير ومليلية وسبتة.

ترك صالح باشا في بجاية "علي ياردو" مع ستمائة انكشاري وكلفهم بالمحافظة عليها بصورة دائمة ومستمرة، ومن ثم عاد إلى الجزائر، وقد قام علي ياردو بترميم ميناء المدينة وزاد من الاستحكامات، وفي سنة 1556 توفي صالح رايس باشا على إثر إصابته بالوباء عن عمر يناهز سبعين عاما[47].

وختاما تجدر الإشارة إلى أن سكان مدينة بجاية من البربر والعرب قد قاوموا الاحتلال الاسباني طيلة فترة احتلاله للمدينة رغم إصرار المصادر الاسبانية على تغييبه، وجعل الصراع في بجاية يدور بين الترك والاسبان، كما يعد تحرير بجاية سنة 1554 وليس 1555 على يد صالح باشا تشجيعا للعثمانيين والعرب والبربر بالجزائر على تحرير مستغانم سنة 1555 ووهران

والمرسى الكبير سنة 1732 ثم سنة 1792 وهي السنة التي حققت فيها الجزائر وحدتها الترابية قبل أن يداهمها الاحتلال الفرنسي الذي استفاد كثيرا من أخطاء الاحتلال الاسباني والوجود التركي العثماني بالجزائر.

الهوامش:

(1) هاينريش، فون مالتسان. ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا. ترجمة: أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979. الجزء الثاني، ص ص. 110-112.

(2) الوزان الفاسي، الحسن بن محمد. وصف افريقيا. ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1983، الجزء الثاني. ص ص. 50-51.

(3) هذه إشارة من مارمول على أن بجاية قد عرفت هجرة أندلسية، ساهمت في تطورها وكانت لها يد في ممارسة بجاية للقرصنة البحرية ضد السفن الاسبانية في عرض البحر المتوسط .

(4) مارمول، كاربخال. إفريقيا. الجزء الثاني، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي وآخرون، مطبعة المعارف الجديدة، 1408-1409هـ/ 1988-1989م، الرباط. ص 377.

(5) المصدر نفسه، ص. 376.

(6) نفسه، ص. 376.

(7) الحسن الوزان، المصدر السابق، ص. 50.

(8) مارمول كاربخال، المصدر السابق، ص.377.

(9) الحسن الوزان، المصدر السابق، ص. 50.

(10) فارس، محمد خير. تاريخ الجزائر الحديث. مطبعة ألف باء، دمشق، 1969 . ص 16.

(11) هاينريش، فون مالتسان. المصدر السابق، ص 114.

(12) مارمول، كاربخال. المصدر السابق، ص 379

(13) نفسه، ص ص 375-376.

(14) نفسه، ص.378.

(15) أبو راس الناصر، محمد بن أحمد. عجائب الأسفار ولطائف الأخبار . الجزء الأول، تقديم وتحقيق محمد غالم، منشورات المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، 2005، ص 160.

(16) فارس، محمد خير. المرجع السابق، ص. 16

(17) مارمول كربخال. المصدر السابق، ص. 377.

(18) هاينريش، فون مالتسان. المصدر السابق، ص ص. 113-114.

(19) فارس، محمد خير. المرجع السابق، ص. 20.

(20) مارمول كاربخال. المصدر السابق، ص. 379.

(21) فارس، محمد خير. المرجع السابق، ص.20.

(22) مارمول كاربخال. المصدر السابق، ص377.

(23) المصدر نفسه، ص ص. 378-379.

(24) القادرغة: هي سفينة شراعية حربية استعملت قبل اكتشاف السفينة البخارية، وتشتمل على خمس وعشرين مقعد تجديف، كل مجداف يقوم بدفعه أربعة إلى خمسة جدافين، تمتاز بطولها وخفتها. يتكون طاقمها من خمس وثلاثين بحارا ومائة وستة وتسعين جدافا كما تحمل ستة عشر مدفعا.

(25) خير الدين بربروس. مذكرات خير الدين بربروس. ترجمة محمد دراج، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر العاصمة، الطبعة الأولى، 1431هـ/2010م، ص ص 50-51.

(26) إلتر، عزيز سامح. الأتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية .ترجمة: محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 1409هـ/1989م. ص.45.

(27) المرجع نفسه، ص.45.

(28) المرجع نفسه، ص.45. و خير الدين بربروس. المصدر السابق، ص.54.

(29) مارمول كاربخال. المصدر السابق، ص. 379.

(30) يرى مارمول أنهم انسحبوا إلى جيجل، وهذا ما لا يتوافق مع السياق التاريخي للأحداث، والأرجح تونس الحفصية التي كانت تدعمهم لوجيستيكيا. فجيجل لم تتخذ نقطة استناد إلا في المعركة الثانية.

(31) خير الدين بربروس. المصدر السابق، ص ص 54-55.

(32) نفسه، ص. 67.

(33) نفسه، ص. 68.

(34) إلتر، عزيزسامح. المرجع السابق، ص. 47.

(35) خير الدين بربروس. المصدر السابق، ص. 70.

(36) إلتر، عزيز سامح. المرجع السابق، ص.48.

(37) ابن محمد الجيلالي، عبد الرحمن. تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1415هـ /1995م. الجزء الثالث، ص. 38.

(38) إلتر، عزيز سامح. المرجع السابق، ص. 48.

(39) خير الدين بربروس. المصدر السابق، ص ص. 70-71.

(40) نفسه، ص. 72.

(41) نفسه، ص. 73.

(42) نفسه، ص. 74.

(43) مارمول كارخال. المصدر السابق، ص.379.

(44) إلتر، عزيز سامح. المرجع السابق، ص ص.194-195.

(45) مارمول كاربخال. المصدر السابق، ص.380.

(46) هاينريش، فون مالتسان. المصدر السابق، ص.114.

(47) إلتر، عزيز سامح. المرجع السابق، ص. 195.